مقدمة المحقق

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أفضل خلق الله الصادق الأمين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه ومن تبع الهدى، وبعد. تفخر أمتنا العربية الإسلامية بتراثها والعالم كله يشهد بذلك، فالحضارة الأوروبية تسند كل السند على حضارة العرب فى شتى المجالات العلمية من طب وهندسة وكيمياء وطبيعة وفلسفة وتاريخ... إلخ حتى المتاحف الأوروبية والأمريكية مليئة بأثمن وأغلى المخطوطات العربية على مختلف فروع العلم، وإلى يومنا هذا العالم يعيش فى دهشة وحيرة من أوج وعظمة الحضارة العربية والإسلامية وخير دليل على هذا المصنفات والمؤلفات لكبار العلماء الفقهاء والمفسرين والقضاة ومازالت الجامعات الأوربية تدرس هذه الأعمال، وقدنبغ عدد من المستشرقين فى الاهتمام بالدراسات العربية والتراث وخاصة المخطوطات نذكر منهم لويس شيخو وليفى بروفنسال وذى وبوذرث وكارل بروكلمان، وأقدم للمكتبة العربية كتاباً جديداً «مواهب اللطيف فى فضل المقام الشريف فى مناقب السلطان قانصوه الغورى» لشمس الدين محمد بن أحمد بن شرف الدين المدنى الشافعى. فقبل التحدث عن هذا العمل، نلقى الضوء على المماليك والسلطان قانصوه الغورى.

١- نشأة المماليك وحكمهم

يمكن أن يسمى عصر المماليك بحق العصر المظلم لأنه أغمض عصر فى تاريخ مصر،ولأنه من جهة أخرى كان مظلماً بالحجج التى حالت دون المؤرخين للوصول إلى حقيقته، ولكنه بالرغم مما يوصف به كان عصراً قائما بنفسه له مظاهر وتعاليم وفلسفة ونظم اجتماعية وأخلاقية خاصة به ولهذا العصر تأثير شديد فى مجرى الحوادث فى تاريخ مصر فى العصور التى تلته لأن النيران الذى ألقاه المماليك على رقاب المصريين كان أثقل من أن تتخلص منه مصر فى حوالى ثلاثة قرون [١] ولذا

(١) لا يزال كثير من العادات الباقية من عصر المماليك فاشية فى أرياف مصر، وخصوصاً فى الصعيد، حتى الآن.

يمكننا أن نقول أن مدنية هذا العصر كثيرة المتناقضات، ولذلك وصفت هذه بأنها عصر الظلام، أو عصر الفوضى أو العصور المظلمة ووصفها الغير بأنها عصر النظم المحلية وحكم الاقطاع أوعصر الفروسية والشجاعة وغير ذلك من المظاهر المختلفة التى جعلت تاريخ هذا العصر أمتع جزء فى تاريخ مصر.

وفى هذا العصر عاشت مصر نفس الحياة التى عاشتها أوربا فى القرون الوسطى فى عصر الفرسان والاقطاع.

آل تراث الأيوبيين بعد انقراض الملك منهم الى المماليك البحرية سنة ١٢٥٠هـ. فقد اضطر صلاح الدين الأيوبى لكى يتمكن من القيام بحروبه الصليبية إلى أن يشترى ١٢- اثنى عشر - ألف مملوك من الجراكسة والأتراك وبعد أن دربهم على الحركات العسكرية والفنون الحربية ألف منهم جنداً، لم يلبث أن صار أشد الجنود الأسيوية الأصل باساً وأقواهم بطشاً وكانت سلطة مواليهم قد آلت على توالى الأيام إلى حوزتهم فغلبوهم عل أمرهم وتصرفوا فى أحوال الدولة على أهوائهم ثم لم يلبثوا أن أسقطوهم عن عروشهم وأختاروا السلاطين لهم من بينهم وأخذوا يؤلفون برسم أنفسهم فرقاً من المماليك على الوجه الذى ألفت به فرقهم فتضاعف عددهم وحصلت لهم العصبية الكفيلة بالقدرة على تنفذ أحكامهم والتغلب على سواهم .

وطريقة جلبهم إلى مصر أنهم كانوا وهم فى مقتبل العمر يُباعون فى أسواق النخَّاسة بيع الأرقاء ثم ينُقلون إلى ذلك القطر الذى قُدِّر لهم أن يقبضوا على زمام أحكامه دون أن تربطهم به صلة وطن ولا آصرة قرابة.

ولم يكن عجباً أن يعاملوه وأهله معاملة البلدان المفتوحة والأمم المغلوبة على أمرها إذ لم يكن يعنيهم من شأنه وشأن أهلها سوى التفنن فى ضروب ابتزاز الأموال واستدرار الخير فتطوروا بطور الحضارة والترف وألفوا النعيم وغضارة العيش وبلغوا فى ذلك الغاية حتى أصبح حكمهم القائم على أساس التوحش والهمجية سلسلة متصلة الحلقات من الفوضى والاختلال والمكايد المُراد بها تعزيز الأطماع الذاتيةوتفشى وسائل العنف والقهر بما يؤدى إلى سفك الدماء و إزهاق الأرواح لتحقيقها.

ورغم توالى حضور المماليك وغيرهم من قبائل الغزاة إلى مصر وتوطنهم فيها فقداستمر النقص فى السكان منذالفتح العربى حتى قدرتهم (عدد السكان) الحملة الفرنسية بمليونى نفس. وإناً إذا بحثنا عن أسباب هذا النقص لانلبث أن نتأكد رجوعها كلها إلى ماكانت عليه حكوماتهم من اختلال نظام واستبداد حكم وعماية عن الصواب ونزوع إلى الفوضى التى اغتصبت زمام الحكومة وتصرفت فى شؤونها بالعبث والإفساد حتى ضاع الغرض المقصود منها.

ومن الأسباب المباشرة لتناقص عدد السكان كثرة عدد الطواعين التى أصابت مصر. ولكن من المسؤول عن عدم وقاية البلاد من هذا البلاء؟ أليس هم بالطبع حكام البلاد الذين لم يكن لهم غرض إلا إرواء شهواتهم والقبض على السلطة فوق رقاب العباد؟

ويرىء «كوفيه» وقدنقل عن كلوت بك أن أسباب تناقص عدد السكان هو طغيان الصحراء على الوادى الخصيب.

وقد نشأ عن الفوضى الطويلة التى حلَّت فى مصر محل النظام طوائف كثيرة من صغارالزعماء استمدوا من قوة الحسام ما انتحلوه لأنفسهم من حق التصرف فى نفوس الأهلين وإيرادهم موارد الهلاك.

ومن أين كان لمصر أن تسترد صحتها وشبابها وقوتها وقد ضيق عليها الأنفاس.أولئك الألوف المؤلفة من صغار الظلمة الطاغين ومن أين لذلك البلد أن يرد غير موارد الهلاك وأن يكون مثله إلا كمثل المصاب بالبرص ليس لدائه طب إذا أصبح ميداناً للحروب الأهلية ومجالاً تعبث فيه طوائف الفاتحين الغزاة بالخراب والفساد.

«مثَّل المماليك فى تاريخ المشرق،دوراً مهماً جعل من الواجب على المؤرخين أن يضعوا له بحثاً خاصاً، وتحقيقاً دقيقاً، ليظهروا ماكان لتلك الطغمة من الأثر الطيب أو السيىء، وليشرحوا أيضاً ما إذا كان فى ظهورهم وتقوية شأنهم، بل وفى ذكائهم وقوة بأسهم، فائدة للأمم الإسلامية، بحيث استطاعت أن ترد وقتاً ما بهؤلاء المماليك الحروب الصليبية من القرن الثالث عشر إلى القرن التاسع عشر، أوهل كان ظهور

أولئك على مسرح السياسة الشرقية، سواء فى آسيا أوفى شمال أفريقيا، سبباً فى اضمحلال النهضة العربية، وقضاء على الحياة الفكرية.

إنى أميل إلى الرأى بأن المماليك وخصوصاً الطبقة الأخيرة منهم كانت سبباً لبلاء هذه الديار وعذاب أهلها مدة طويلة من الزمان، إذ صيروا وادى النيل ميداناً للسلب والنهب والمظالم كما سنرى ذلك مفصلاً فيما يلى:

كلمة مملوك هى اسم مفعول من «ملك» وهو ظاهر المعنى لايحتاج لإيضاح وقد ذكر المؤرخون أن منشأ المماليك من جهات «قفجان» من شمالى آسيا. وأنه لما غزا المغول تلك الأصقاع تحت قيادة «باتوخان»حفيد جنكيز خان، ساموا أهلها الذل وفتكوا بهم فتكاً ذريعاً، حتى هاجر سكان الولايات القروينية والقوقاسية من ديارهم،فضعفت قبائلهم وتشتت فى بلاد آسيا الصغرى. وكانت تجارة الرقيق الأبيض والأسود فى شدة انتشارها، فكان النخّاسون يبتاعون أحسن أبنائهم وأجملهم وأقواهم من أقاربهم، وآبائهم،أو كانوا يختطفوهم فيبيعونهم لمن شاء من أمراء وأغنياء الديار السورية والعربية والمصرية فيشب الفتى وقد نسى قومه وجنسيته واندمج فى سلك أمثاله المماليك تحت رعاية مملوك منهم أو أمير من أمراء العرب أو غيرهم،يقربونهم إليهم، ويحبوهم لجمالهم وذكائهم وولائهم فى خدمتهم، فيرقونهم بعد أن يشتد ساعدهم فى بطانتهم، وعند ذلك تتطلع نفوسهم إلى مراتب العز ومنازل الإمارة والشرف بل إلى الملك ذاته لأنهم كانوا يعرفون أن أمثالهم من المماليك الأرقاء الذين ابتيعوا صغاراً وربوا فى أحضان أسيادهم وملوكهم، شبوا على الفروسية والإقدام، ووصلوا إلى أرقى مناصب الملك والسيادة، ولم يكن يخفى على صغيرهم قبل كبيرهم أن سلاطين المماليك بعد الدولة الأيوبية من عهد الظاهر بيبرس، فالملك قلاوون، فالسلطان حسن وبرقوق وبرسباى وقايتباى وجميع ملوك هذه الدولة وسلاطينها، لم يكونوا إلا مماليك، أو أبناء مماليك مثلهم.

ومدة حكم هؤلاء المماليك لايمكن أن يجد لها الإنسان مثيلاً فى تاريخ العالم كله وذلك لأن مركزهم كان استثنائياً لأنه لم يسمع مطلقاً - ولو أنه حدث أن العبيد والأرقاء فى ثوراتهم يسودون مواليهم سيادة لاتلبث أن تنقشع سحبها - إن طائفة من الأرقاء المشترين بالأموال من أسواق آسيا يكثر عددهم ويؤوا أرقاء مثلهم ثم

يحكمون قطراً غنياً كمصر، ويضعون أيديهم على بلاد أخرى خارج هذا القطر، ويصبح مملوك اليوم منهم حاكم الغد ولكن مماليك مصر يعطوننا هذا المثال .

وقد كان نهوض هذه الطائفة تبعاً للسُنة التى جرى عليها العباسيون وهى بيع الألوف من العبيد من قبائل التركمان والمغول واستخدامهم حرساً لهم ومصدراً لجيشهم ليناهضوا بهم الجنود العربية فاستفحل أمرهم وقتئذ وأصبحوا سدى الجيش ولحمته فكانوا يأتون عبيداً فلا يلبثوا أن يصبحوا ذوى الأمر والنهى فى بيت الملك، يشعلون نيران الفتن والقلائل حيت عجلوا أجل الخلافة المنهوكة المنحلة وسلك سبيلهم خلفاء الفاطميين فأصابهم مثل ما أصاب من سبقهم من الخلفاء العباسيين وقدنحت دولة الأيوبيين بعدهم هذه النحوإذ كانوا غرباء فى البلاد فاحتاجوا إلى الاعتزاز بأمثال هؤلاء».

«إن القبائل المقهورة في أواسط آسيا كانت لاترى غضاضة فى بيع أفلاذ أكبادها للنخَّاسين الذين كانوا يعدُّونهم لحُسن المستقبل والسعادة فى الغرب .وقد سهَّل عمل النخَّاسين ماكان يُذاع عن ثروة مصر الكبيرة التى يمكن الحصول عليها بأقل جهد.لذلك لم يقتصر الأمر على سبايا الحروب وأسرها بل كان يتدفق على البلاد الغربية سيل من أبناء القبائل الشرقية لتهافت السلاطين والأمراء على شرائهم أحياناً بأثمان باهظة .

ولما كانت هذه الفئة تنشأ نشأة حربية كان أسعدهم حظاً وأعظمهم مقدرة من تفك رقبته بأمر السلطان فيصبح أميراً على عشرة أو خمسين أو مائة .وقد يثب أحدهم وثبة واحدة تجعله أمير ألف. وأخذ عددهم يتضاعف بشراء مماليك جُدد كانوا ينالون مانال أمراؤهم من الحرية والثراء. وقدكان السلاطين بطبيعة الحال أكثر الناس انكباباً على شراء المماليك . ولذلك استخدموا الحكومة فى إحاطة أنفسهم بجمع عظيم من هؤلاء المماليك .فقد علمنا أن أحد السلاطين اشترى منهم نحو ستة آلاف، وبينما كان السواد الأعظم من الأمة يعيش عيشة الفقر غارقاً فى حمأة الجهالة كان المماليك المقربون لدى الأمراء ولاسيما حاشية الملك يتعلمون علوم السلم والحرب، وكان الواحد منهم ينهض من درجة حاجب ويتابع تدريجياً حتى يصل إلى مرتبة سيده، فملوك اليوم هو قائد الغد بل ليس بعزيز عليه أن يصبح سلطاناً».

«وقد قصَّ المقريزى فى كتابه عن تاريخ مصر رواية عن المماليك وهى وإن كانت من القصص التى لايعتمد على روايتها المؤرخ، إلاأنها تعطينا فكرة صادقة عن الآمال والأمانى التى تدور فى نفس المملوك وهو قادم فى طريقه إلى مصر «روى الإسحاقى عن عبد الملك الأشرف قايتباى المحمودى، أنه لما جلبه (الخواجا) محمود إلى مصر وكان معه رفيقه أحد المماليك الذى جلب معه مع الجمال الذى يحملهما إلى مصر فى ليلة مقمرة فقالا لعلَّ هذه الليلة هى ليلة القدر التى يُستجاب فيها الدعاء، فليدعُ كل منَّا بما يحبه. فأما قايتباى فقال أطلب من الله تعالى سلطنة مصر، وقال الثانى وأنا أطلب من الله أن أكون أمير اً كبيراً. أما الجمَّال فقال أما أنا فأطلب حُسن الخاتمة فصار قايتباى سلطاناً وصاحبه أميراً، فكانا إذا أجتمعا يقولان فاز الجمَّال من بيننا».

فانظر كيف كانت تطمع نفس المملوك إلى السلطنة وهولايزال فى الطريق إلى مصر!.

«وقد بيَّنا فيما سبق أن نهوض هذه الطائفة كان نتيجة لما اختطه العباسيون على أن القياس على حالة بغداد قياس لاأساس له، لأن القبائل الهمجية التى نزلت هناك اختلطت بالسكان واصبحت جزءاً منهم .أما الحالة فى مصر فكانت على نقيض ذلك تماماً، وهذا هوموضع العجب، فمماليك مصر لم يختلطوا بأهلها بل ظلوا بمعزل عنهم محتفظين بجنسيتهم وعاداتهم، فكانت حكومتهم على رأسها الأمير أوالسلطان فى حين أن باقى المماليك كان لهم سلطان نافذ لاينازعهم فيه أحد .

إذا علمنا كل ذلك وعلمنا مبلغ السلطة الهائلة التى لاتُحد التى تمتع بها المماليك فى مصر عرفنا السبب الذى من أجله أقدم كثيرون من الناس على بيع أولادهم وبناتهم ليكونوا فى حاشية سلطان مصر !.. لابل علمنا السبب الذى كان يدعو كثيرين من الجراكسة والتركمان أن يفدوا رُمزاً إلى أرض الآمال».

أجمع المؤلفون الذين عُنوا بوضع تاريخ عن عصر المماليك على تقسيمهم إلى طبقتين أو قسمين «المماليك البحرية ١٢٥٠م - ١٣٨١م» و« المماليك البرجية ١٣٨١م-١٥١٧م» وقد جرى أكثر المؤرخين على ذلك ضاربين صفحاً عن أعظم

عصر قويت فيه شوكة المماليك وكثرت مظالمهم وعظم نفوذهم وأضحت فيه مصر حقلاً لمطامعهم وأغراضهم أى عصر الأتراك أو المدة المحصورة مابين الفتح العثمانى واستقلال محمد على بمصر.

ونرى فى كتاب فتح مصر الحديث أن حافظ بك عوض قد قسم المماليك إلى طبقتين كبيرتين :

الطبقة الأولى من ١٢٥٠م ـ إلى الفتح العثمانى ١٥١٧م.

الطبقة الثانية من ١٥١٧م إلى أن مذبحة القلعة الشهيرة أو إلى استقلال محمد على بمصر وذلك لأنه يرى أنه لاعبرة لقولهم أن القسم الأول من المماليك البحرية كان من جنس غير جنس المماليك الشراكسة لأن المماليك فى أول أمرهم وفى أواخر الدولة العباسية إلى مذبحة القلعة، ثم فى أيام محمد على وإسماعيل وتوفيق لم يكونوا من جنس خاص، ولا من أمة معلومة، بل كانوا دائماً خليطاً ممن يُباع ويُشترى من الفتيان الحسان الأقوياء، سواء أكانوا من شواطئ بحر قزوين وأواسط آسيا من تتار ومغول وشركس، أم كانوا من بحر إيجة من الأروام وجزر البحر الأبيض المتوسط .

وهذا السلطان الظاهر «حوش قدم» من مماليك الطبقة الاولى، يُلقب بالرومى لأنه يونانى الأصل، ويُلقب بالناصرى مع إسلامه، وكان له ولع عظيم بالعلوم والآداب اليونانية القديمة. وربما كان فيهم من أجناس مختلفة من الشعوب القائمة حول الأدرياتيك أو من جزائر إيطاليا والبحر الأبيض على الإجمال.

ولأنه يرى أيضاً أن الفتح العثمانى لم يقضِ على سلطة المماليك بل زادها عتواً وتجبراً وعلى ذلك يمكننا أن نقول أن المماليك حكموا مصر من عام ١٢٥٠م إلى حوالى ١٨١١م مع استثناء مدة الحملة الفرنسية وأول ظهور سلطة محمد على الفعلى، فأما أنا فأميل إلى أربعة أقسام .

١- المماليك البحرية ١٢٥٠م - ١٣٨٧م

٢- المماليك البرجية ١٣٨١م- ١٥١٧م

٣-المماليك البكوات ١٥١٧م -١٨١١م

٤- مماليك الأسرة العلوية.

ولست فى هذا التقسيم أراعى اختلاف جنسيات المماليك بعد أن أوضحت أنهم جميعاً لم يكونوا فى أى طبقة من وطن واحد ولا من أمة واحدة. ولست أراعى أيضاً فى هذا التقسيم المناطق التى سكنوها فأقول مماليك بحرية لأنهم سكنوا جزيرة الروضة وبرجية لأنهم سكنوا الأبراج ولا مماليك بكوات لأن هذا كان نعتهم أيام الاحتلال العثمانى.

لست أراعى ذلك ولكن أراعى اعتبارات أخرى فإن أكثر ملوك الطبقة الأولى أتيح لهم الحكم باسم سلاطين من الأطفال، فقد تولى قلاوون وصياً على ابن بيبرس (سيف الدين شلامس) فلم يلبث أن خلعه من المُلك ووثب مكانه على العرش، وتولَّى كتبخا الحكم بصفته وصياً على السلطان لاجين فلم يلبث أن استبد وحده بالملك.

أما ملوك الطبقة الثانية فقد صار إليهم الأمر حقاً فحكموا بأسمائهم وتولوا الأمر بأنفسهم حقاً على الرغم من أنه لم يكد ينال مصر من هذا التغيير نفع كبير.

«وعلى كل فإن مماليك هاتين الطبقتين كانا أرقى أخلاقا وأفضل سياسة من مماليك الطبقة الثالثة، وكان يظهر فيهم من وقت لآخر فحول سياسة ورجال عدل ونظام ورفق بالرعية وكان مما يصلح شأنهم،أن الوراثة كانت توجد فيهم من وقت لآخر مما ثبت دعامة الملك ولم يدعها مطمعاً لكل سفاك للدما ء طامح للسلطة والإمارة.

وقد امتاز مماليك هاتين الطبقتين بما تركوه فى القاهرة وضواحيها من الآثار النفسية والمساجد البديعة النادرة المثال وما أبقوه من العمائر التى تدل على ذوق رائق ورفاهية تُضرب بها الأمثال.

وقد وصفهم العلاَّمة «لاين بول» فى كتابه ا لمُسمى «القاهرة» فقال:

«لقد جمع هؤلاء المماليك بين المتناقضات التى لم تجمع فى طبقة من الأمراء فى أى زمان أو مكان، فبينما نعرف أنهم عُصبة من الأفاقين ابتيعوا بيع السلع ونشأوا أرقاء، وربوا سفاكين للدماء، ظالمين للعباد،مخربين للبلاد، نجد منهم ميلاً غريباً للفنون، يحق لأى ذى عرش وصولجان أن يفخر به على الأنداد والأقران، ولقد أظهر

هؤلاء المماليك فى لباسهم، ومسكنهم وعمائرهم ذوقاً سليماً، ورفاهية بائغة، يصعب على أوربا الآن فى عصرها «الأستاتيقى» المحب للجمال والتأنق، أن تدانيهم فيه .

انظر إلى ما يوجد الآن فى القاهرة من المساجد الكبيرة التى تناطح مآذنها السحاب تجد أنها بُنيت فى عصر مماليك هاتين الطبقتين، انظر إلى جوامع قلاوون، والناصر، والناصربن قلاوون، والسلطان حسن، وبرقوق، والمؤيد، والأشرف، وقايتباى .

ثم انظر إلى قباب قبور المماليك بالصحراء، ترى من جلال البناء، وبديع العمارة، مالايُدانى وكل مابُنى بعد فى العصر الأخير من القرن التاسع عشر، إنما هو تقليد وتشبيه بتلك العمائر التى تفخر بها القاهرة على مدن العالم.

وأما مماليك الطبقة الثالثة أى المماليك البكوات فإن أغلب المؤرخين كانوا لا يعتبرون عصرهم من ضمن عصور حكم المماليك ولذا اضطررت أن ألتجىء إلى مصادر كثيرة وإلى تطويل قد يكون مملاً لأثبت أن الحكم الفعلى فى عصر الأتراك كان لمماليك هذه الطبقة دون غيرهم. وإنهم لم ينقصهم فى هذا العصر إلا لقب السلطنة الذى استبدلوا به لقب« شيخ البلد»ولم يأبه المملوك كثيرا لذلك واكتفو بالجوهر، والحكم الفعلى دون لقب السيادة».

«ظل حكم المماليك على مصر طوال الحكم العثمانى إذ أنه كلما كان يتقلص مجد الباب العالى من وقت لآخر كان كذلك يقل نفوذ ولاته فى مصر فيزيد نفوذ البكوات المماليك تبعاً لذلك. وبقى المماليك على عهد العثمانين ـ كما كانوا من أجيال عدة -يكثرون من عددهم بشراء مماليك جُدد كانوا يفدون على مصر من سيبريا وبلاد الجركس وما جاورها من البلدان، وصار رؤساء المماليك يُسمون باسم « شيخ البلد» وكانوا كثيرا ما يتنازعون ويتقاتلون للحصول على هذاللقب فيتلو ذلك هياج يعم البلاد جميعها وكان «الشيخ» إذ عاضده الأمراء يستفحل أمره فينزل الباب العالى ووالیه فى مصر على إرادته، فكأنه هو الحاكم الفعلى للبلاد.

ولما كان الباب العالى مشتغلاً بحروبه مع الروس فى الجزء الأخير من القرن الثامن عشر، نبه ذكر شيخ البلد، على بك الكبير» واستطاع كسر شوكة الانكشارية الذين كانوا عدة العثمانيين إذ ذاك فى مصر، وأخذ يزيد فى عدد المماليك فى بلاطه

حتى بلغوا ستة آلاف، وعندئذ أتخذ موقف المستقل وطرد الوالى العثمانى إلى القسطنطينية، ثم توجه بجيشه إلى سورية فأخضعها وأخضع البدو كلهم فاعترف شريف مكة بسيادته على البلاد المقدسة ومنحه لقب سلطان. وقد حكم حكماً زاهراً ائتمرت به جماعة وذبحوه غيلة فى سورية»

يقول كلوت بك فى كتابه (لمحة إلى مصر) ترجمة مسعود بك.

«صارت مصر فى سنة١٥١٧م أى أيام ا لسلطان سليم الأول إقليماً من الدولة العثمانية ولقدأيقن هذا السلطان عقب استيلائه عليها أنه سيتعذر على حكومته لبعد مصر من مقر السلطنة إظهار سطوتها وتعزيز سلطتها فيها. وكان من جهة أخرى فى حاجة الى مداراة المماليك واستمالتهم إليها ليأمن جانبهم فابتكر لإدارة شؤون البلاد أسلوباً أحكم تدبيره بحيث إذا طبق أفضى إلى تحقيق متمنا ه .من ذلك فإنه جزأ السلطة العامة أجزاء جعل كل جزء منها وقفاً على طائفة من طوائف المماليك وفرقهم وأتمَّ ذلك على وجه يقتضى مراجعة الدولة العلية وتداخلها كلما اختل التوازن والتعادل من قوى تلك الأجزاء.

أما شؤون الحكومة ومناصبها فقد عهدت إلى ديوان أعضاؤه من كبا ر المماليك وزعمائهم وأما الإدارة المحلية فقد نيطت بأربعة وعشرين بيكاً منهم روساء تلك الفرقة والطوائف وزعمائها.

وكان لهؤلاء أن يجبوا المفروض والضرائب الجزئية فيأخذ الديوان منها حصة تعدل الجزية السنوية التى يجب دفعها إلى الباب العالى، وكان للسلطان فى البلاد وال برتبة الباشا يمثله فيها لدى أهلها وحكامها وكانت تنحصر مهمته فى إبلاغ الأوامر التى يتلقاها من السلطان إلى الديوان وإيصال مبلغ الجزية إلى خزينته وصيانة البلاد من الاعتداء الخارجى ومقاومة نمو الأحزاب وتفاقم خطرها.

وألفت فرق من مستحفظان الانكشارية والاسباهية بقيادة رؤساء يُسمون الوجاقية لتأييد الباب العالى والذود عن حقوقه واختصاصاته ولكنهم بالنظر لاعتيادهم فى مصر خصب العيش وأخذهم بمذاهب أهل الحضر من الترف والنعيم ذهبت منهم البسالة فنشأوا على كراهية المغامرة التى جعلت الانكشارية من أولى البأس والشدة

ونجم عن هذا وذاك أن احتفظ المماليك لعصبيتهم ولم يفقدوا شيئاً من صولتهم. وكان لأعضاء الديوان أن يرفضوا أوامر الباشا ويمسكوا عن المصادقة عليها بشرط توافر العلة والمبرر بل كان فى قدرتهم العمل لإبعاده وعزله من منصبه.

ومن ثم تضاءلت على التوالى الأيام سيادة الباب العالى على مصر وأصبحت ضيقة النطاق حتى صارت من النصف الثانى من القرن الثامن عشر إلى الخيال أقرب منها إلى الحقيقة .

ثم كانت ثورة على بك الكبير التى إنتهت بإعلان تنصيبه سلطاناً على مصر وقد انصدع من جراء هذه الثورة صرح السيادة العثمانية فأصبحت عرضة لخطر السقوط والزوال حتى سهل على المماليك منذ هذا الحين إبعاد البشوات ونفيهم بلا معارض ولامشاق وكان هؤلاء يشعرون بضعفهم وحرج مركزهم إلى حد أنهم كانوا إذا وصل إليهم بلاغ يدعون فيه إلى التنحى عن منصب الولاية ومغادرة المدينة بادروا من فورهم إلى الطاعة فغادورا قصورهم المشيدة بلا مخالفة ولامحاولة مقاومة وجاء من بعدهم خلف تفوقوا عليهم فى الاحتياط وحُسن التدبير وصدق النظر فإنهم على الرغم من اتصافهم مثلهم بفضيلة الفتوة والبسالة والإقدام أبوا مزالق المناداة باستقلالهم ولم يطفروا إلى هذه الغاية التى كانوا يعرفون أنه يسوء الدولة العلية ذكرها لاسيما وأنهم يعتقدون أن ماهم عليه من الاستقلال الفعلى يغنيهم عن إعلان استقلالهم الأسمى بل تظاهروا باحترام الدولة وإجلال الأوامر الواردة عليهم من السلطان مع التجافى عن تنفيذها .

وكانوا فيما عدا ما تقدم ينتقصون الجزية السنوية ويقصونها من أطرافها متقدمين إلى الخزينة بالأعذار الوجيهة كزعمهم أنهم أنفقوها فى مصالح الدولة وتأييد شوكتها وبلغت الجرأة أحياناً بهم إلى الوقوف عن دفعها بالمرة متذرعين بباطل الأعذار وفاسد الدعايات. وماكان فى سعة الباب العالى تجاه هذا العبث إلا أن يغمض الطرف ويجرذيل الأعضاء عليه علماً منه بما يعقب التحفز لإصلاحه أو قمعه من النتائج الخطيرة بالنسبة له ومن ثم اتجهت سياسته إلى غايةواحدة هى إلقاء بذور التدابر والانقسام بين المماليك مع اتخاذ الوسائل لمنع تغلب حزب على حزب لايتمكن الحزب القوى الغالب من تأييد شوكته وتوطيد سلطته على وجه تتم به الوحدة

ويتوافر النظام. وكانت هذه السياسة سيئة العواقب على الأمة المصرية التى كانت تسوء على الدوام أحوالها ويضطرب حبل شؤونها كلما سادت الفوضى وعم الاختلال وتحسن كلما ارتكزت السلطة على أساس وطيد من الهمة والهيبة والنظام».

وقد تمكن الفرنسيون بقيادة نابليون بونابرت عام ١٧٩٨م من الإستيلاء على مصر عنوة من الباب العالى ولكن أغراض هذه الحملة فشلت فترك نابليون مصر فى ٢٢أغسطس ١٧٩٩ م ثم غادرها الفرنسيون نهائياً فى ١٨ سبتمبر سنة ١٨٠١م وبعد أن ترك مصر الفرنسيون حاول الأتراك إحتلالها مرة أخرى ولكن احتلالهم لم يطل إذ نزع الحكم منهم بعد حين محمد على - يوليه سنة ١٨٠٥م - وبدأ محمد على لكى يكون صاحب النفوذ الحقيقى فى البلاد أن يخلصها من المماليك وحكمهم ولما كان لاطاقة له على ذلك فى ذلك الوقت اتفق معهم اتفاقاً وقتياً (سنة١٨١٠م) ولما لم يخلدوا للسكينة استأصل شأفة زعمائهم فى مذبحة القلعة (فبراير سنة١٨١١م)، «صفر سنة ١٢٢٦هـ» وبذلك إنتهت الطبقة الثالثة منهم وأما الطبقة الرابعة فسيأتى[١] عنها التفصيل فيما بعد واندمجت بقية شعبة المماليك فى الشعب المصرى وزالت هيبتهم من الحكومة بإقصائهم عنها نهائياً بيد عرابى.

أما عن عصر قانصوه الغورى[١٥٠١م - ١٥١٦م] فقدذكرت المصادر والمراجع عنه وعن طومابای فقد ذعرت المدينة عند اختفاء العادل طومان باى حين شاع ذكر ظهور قانصوه (ذى الخمسمائة دينار)[٢] ذلك السر الغامض. ولم تمض بضعة أيام حتى اختار الأمراء والمماليك قانصوه الغورى، وهو مملوك جركسى، خدم«قايتباى»كغلام وتابع له .وقبل أن يصير (رئيساً لعشرة)كانت سنه تزيد على الأربعين، وبعد ذلك رقى بسرعة إلى قيادة «طرسوس» و«حلب» و«ملطية»، ثم صار أميراً لألف ثم كبير الأمناء، ثم رئيس الوزراء. وقد رفض العرش فى أول الأمر، ولكن الأمراء ألحوا عليه بقبوله بعد أن أقسموا له على الإخلاص فى خدمته فقبله

(١) أنور زقلمة المماليك ١٤

(٢)عندما نقترب من نهاية تاريخ هذا العصر تعوزنا تفاصيل المقريزى وابى المحاسن الممتعة ونحن مدينون على كل حال لابن إياس الذى يقص أخباراً واضحة ولكنها ليست مسهبة مفصلة مثل أخبار سابقيه . وتوجد أيضاً مخطوطات عربيةوتركية تكمل تاريخ هذاالعصر ولكنهاليست مجزوما بثقة مصدرها .

أخيراً، وكانت سنه إذ ذاك ستين عاماً، غير أنه كان لايزال ثبتاً شديداً، ولم يلبث أن أظهر للأمراء أنه ليس بالشخص الذى يخضع لأى واحد منهم.

بدأ حكمه كالمعتاد بطرد شيعة «طومان باى». ولما كانوا خطرا يهدد العرش قبض عليهم وسجنوا أو نفوا، وصودرت أملاكهم .ثم وهب الحرية والقوة للحزب المعادى لهم، وعينهم فى الوظائف. وقد وجُد «طومان باى» فى مختبئه يدبر المكائد للسلطان الجديد .وبعد بضعة أسابيع خانه أصدقاؤه وأمكنوا منه مماليك أمير كان قد قتله، فقتلوه، وبهذا نجا «قانصوه» من الخطر من غير أن يثير كراهية شيعة سلفه، وأحضرت أيضاً من الاسكندرية وفاة «جنبلاط» الذى قتله «طومان باى»، ودفنت بالقاهرة باحتفال ملكى .

ولما زال الخطر الذى كان يهدد «قانصوه» وقتئذ، التفت إلى تدبير موارد الدولة وأراد أن يملأ الخزانة، ففرض ضرائب اجبارية على كل أنواع الممتلكات كانت نسبتها تبلغ ما يساوى دخل مدة تتراوح بين سبعة أشهر وعشرة، ولم يستثن أملاك الوقف أو الخيرات. ولم يعرف هوادة ولا رفقاً فى سبيل جباية هذه الضريبة، ليس من اليهود والنصارى فحسب، بل من كل الطبقات، فولد ذلك الثورات فى المدينة، وصار جامع الضرائب فى القاهرة يرشق بالحجارة، وقد ذبح حاكم دمشق فى إحدى المشاجرات. وعلى ماكان يجبى من ضرائب التجارة المرهقة والبضائع، نقصت قيمة العمل الفعلية. وفرضت رسوماً ثقيلة على الموتى حتى كان الذى يتبقى لقرابة الميت قليلاً.وقد ارتأى أحد المستشارين قصيرى النظر فرض ضريبة على المماليك، فوافقه السلطان عليها أولاً، ولكنه أسقطها عنهم عندما ثار ثائرهم وأزعجوه، ولم يكتف باسقاطها بل سمح بقطع لسان مبتدعها الذى جرد من ملابسه ووضع على جمل وشهر، ثم جلد ورجم حتى أشرف على الهلاك. وفى هذا دليل واضح على الوحشية السائدة وعلى غلظة كبد السلطان، وعلى نظر المماليك بعضهم إلى بعض، ومكانة الواحد منهم عند الآخر .

أما الأموال التى جمعت من الناس على الوجه المتقدم فكانت تصرف بسخاء، فى أول الأمر على المماليك الذين ساعدوا فى جمعها، ثم بعد ذلك على شراء عددكبير

من المماليك الذين كان يثق بهم السلطان كثيراً، لأنهم حديثو عهد بالبلاد . ثم صرف كثيراً من المال على الإصلاحات العامة، وتحصين الإسكندرية ورشيد وغيرهما، وعلى مجارى الماء فى مصر، وبناء مسجد فخم ومعهد فى القاهرة، وإقامة مبان جديدة فى القلعة كانت وقتذاك تحاط بالاشجار الكثيرة والأزها ر الواردة من سورية. وكذلك كان يصرف من إيراد الدولة الشئ الكثير على تجميل «مكة» وزيادة المياه فى طريق الحاج، وعند القبور المقدسة .ولكن كل هذه النفقات لم تكن شيئا مذكوراً بجانب فخامة «بلاط» ذلك المملوك الذى اشترى بالأمس من النخاس، وبذخه وبهائه.

وقد ظل هذه البلاط على أحسن مايكون فخامة وأبهة فى الأثاث والرياش والخيل وكل مايحيط به . وقد استعمل الذهب الدقيق الصنع ليس فى مائدة السلطان فحسب بل فى كل أرجاء القصر - وكما يقال - حتى المطبخ .أما لباس السلطان وأداة زينته فقد جملت بكل ما غلا ثمنه وجمل، هذ ا إلى الشعراء والمغنين والموسيقارين والقصاصين الذين احتشدوا فى البلاط ونعموا على حساب اليتامى والفقراء [1].

وليس هناك شيء كثير جدير بالذكر عن السنوات الأولى من حكمه، ولابد أن تكون مظالم مماليك السلطان قد أصبحت لاتحتمل، لأنه حدث مرتين أنه عندما حلف له أمراؤه يمين الطاعة، أقسم قانصوه نفسه على مصحف عثمان بأنه لايسمح لمماليكه بايذائهم وكذلك نقرأ عن خيانة ظن أنها وقعت، فكان العقاب عليها يفوق وحشية وقسوة كل ماسبق من أنواع الجزاء[2]. ولم يحدث شيء كثير من القتال إلى آخر عهد المماليك،وغاية ما يقال أن البدو قاموا بغاراتهم المعتادة، فهاجموا «الكرك» و«بيت المقدس»، ولكن أمراء «سوَرية» ردوهم على أعقابهم وقد دعت الثورات فى مكة «وينبع» وتنافس الأحزاب فيهما، وإلى أخذ الأهبة لمعاقبة الحكام وإعادة النظام. وقد بذل السلطان اهتماماً كبيراً فى إعداد أسطول لحماية البحار الشرقية من غارات البرتغاليين.

---

(١) هكذا يقول ابن إياس الذى شاهده بنفسه. على هذا يمكن الإعتماد عليها مع ما عساه يكون فيها من بعض المبالغة .

(٢) قد مات أحد الضحايا تحت التعذيب الأليم الذى أوقع به كى يتعرف بأشياء أكثر مما اعترف بها. وقد لف نسيج مغمور فى الدهن حول أصابعه وأحرق .وقد عصبت جبهته بشدة حتى جحظت عيناه،وهلم جراً

وكان ذلك هو الوقت الذى عبر « فاسكودا جاما»، بعد أن كشف عام ١٤٩٧م الطريق حول «رأس الرجاء الصالح» وحصل على ملاحين من ساحل «زنجبار»، المحيط الهندى إلى شواطئ «ملبار» و«قاليقوط» وهاجم الأساطيل التى كانت تحمل المتاجر والحجاج من الهند إلى البحر الأحمر، وأوقع الرعب فى قلوب حكام تلك الجهات .وهنالك طلب أمراء «جوزيرات» واليمن المساعدة من مصر فجهز السلطان أسطولاً عدد وحداته خمسون، بقيادة أمير البحر« حسين الكردى». وقد سخر الناس فى تحصين «جدّة» لتكون ملجأ من البرتغاليين وحمى بلاد السعيدة والبحر الأحمر. ولكن بقيت الأساطيل التى كانت فى المحيط تحت رحمة العدو. وقد وقعت معارك مختلفة، أخذ فى أحداها البرتغاليون سفينة مصرية تخص قانصوه، كما أخذوا فى العالم التالى أسطولاً مكوناً من سبع عشرة سفينة بعد معركة هائلة، واستولوا على حمولتها، وذبحوا التجار والحجاج، وأحرقوا السفن . وقد استاء السلطان وغضب لهاجمتهم البحر الأحمر، وضياع المتاجر والضرائب، ولتعرض مكة وميناءها للمهانة، وفوق كل هذا لما أصاب سفينته، ونذر أن ينتقم من البرتغال شرّ انتقام .ولكنه فى بداءة الأمر هدد البابا بواسطة رئيس كنيسة بيت المقدس بأنه إذا لم يقف «فرديننذ» ومانويل عن اعتدائهم على البحار الهندية فأنه يدمر كل أماكنه المقدسة، ويعامل المسيحيين كما يعاملون هم المسلمين .ولما فشل فى طلبه هذا قام بالاستعداد بمشروع بحرى بكل همة ونشاط، فنجح بعض النجاح إذ أنه فى إحدى المعارك غلب «لورنزو الأليدى» وقتل، ولكن فى العام التالى انتقم البرتغاليون لهزيمتهم من أسطول المصريين انتقاماً مروعاً . وبعد بضع سنين أخذ «الفونسو الوكرك» «عدن» وحاقت المصائب بالجيوش المصرية فى اليمن، وعند ذلك أعد «قانصوه» أسطولاً جديداً لمعاقبة الأعداء ولحماية التجارة الهندية، ولكن قبل ان تُعلم نتيجة هذا الاستعداد فقدت مصر سيادتها وصارت«مكة» والبحر الأحمر وجميع مصالح البلاد العربية إلى أيدى العثمانيين.

وكان نجم السلطان حينذاك آذناً بأفول . ولم يكن هناك مايجدر ذكره عن الباب العالى ومع هذا كانت الضربة القاضية قريبة جداً.

إنتهت الحرب الاخيرة (١٤٩٠م) كما رأينا بهزيمة الجيوش العثمانية، ثم رجع السلم بين الدولتين، واستؤنف ارسال الوفود بالهدايا الغالية، ومع هذا كانت أسباب

النفور منذرة، إن قريباً وإن بعيداً، بخطر محدق بسبب مساعدة هذه الحكومة أو تلك للأمراء المتنافسين فى آسيا الصغرى وعلى حدود سورية .وبينما كان «بايزيد الثانى» لايزال مشتغلاً فى أوربا، إذ ظهر سبب جديد لمعاداة مصر ـ نشأ هذا السبب من علاقات الدولتين بالأسرة «الصفوية» فى الشرق ـ ويجب علينا أن نعرج عليها الآن :

كان السبب المباشر فى قطع العلائق هو «الشاه إسماعيل الصفوى» وهو من سلالة صفى الدين، وإليه ينسب، ومنه أخذ الاسم، وهوصوفى بلدة «إردبيل» المشهور. وقد انتشرت تعاليمه الصوفيه خاصة فى القرن الرابع عشر فى إذربيجان وقدنال بيته بسرعة نفوذاً كبيراً. ولما طاردهم أهل قبائل «الوير الأسود- قره قيون» التركمانيون أعانهم أهل «الوير الأبيض - آق قيون » أى الشاة البيضاء التركمانيون أيضًا الذين ارتبطوا معهم برابطة الزواج حتى أن إسماعيل فى معركة مع «الوير الأبيض» وكان إسماعيل إذ ذاك لايزال طفلاً فحمل مع الأسرى إلى «اصطخر» ومنها هرب إلى «لحيجان» حيث بقى مستخفياً بين قرابته، وأشرب قلبه مذهب أجداده فاعتنقه بغيرة حماسية حتى صار رئيسا لطائفة الصوفيين، ثم جمع شيعته حوله وصمم على الإنتقام من قتلة أبيه، فقاتل زعيم «الوير الأبيض»[1] وهزمه، ثم استمر فى فتوحه وصار ذا سطوة عظيمة فى فارس وخراسان، وكذلك فى بلاد ماوراء النهرين. ولما عاد إلى أذربيجان صار خطراً يهدد الدولة العلية، ليس بفتوحه على حدودها بل بتغالى شيعته فى معتقدهم. وكان«بايزيد» قد قبض على كثير من الصوفيين فى بلاده وسجنهم أو نفاهم لانهم كانوا خطراً على حكمه. وقد التمس الشاه إسماعيل من بايزيد أن يسمح لشعبه بالعبور من البسفور إلى أوربا بدل قتلهم ونفيهم، فرفض بايزيد هذا الملتمس رفضاً باتاً، فأرسل «إسماعيل» بعثاً إلى البنادقة يدعوهم إلى مشاركة جيوشه فى استرداد الأقاليم التى أخذتها منهم الدولة العلية.

وقد غضب بايزيد من السلطان. واظهر مر الشكوى من أنه سمح لذلك البعث بالمرور من سورية، فأراد «قانصوه» أن يترضاه فسجن البنادقة الذين كانوا إذ ذاك فى مصر وسورية. ومع أنه أطلق سراحهم بعدسنة لخوفه من إنتقام البندقية، بقيت العلاقات بين مصر والدولة العلية سليمة حيناً ما.

(١) يمكن أن يستخلص التعصب الشديد فى مذاهب إسماعيل من قصة مؤداها أن جثة أحد أعدائه حمرت (شويت) وأكلها .ويقال أيضاً أنه أمر بتربية خنزير سماه «بايزيد» وهو أكبر احتقار عند المسلمين.

ولما جلس سليم (العثمانى) على العرش تغيرت الحالة، وأخذت مجرى آخر،إذ كان موقف إسماعيل مهدداً جداً، وكان سليم نفسه فارساً معلماً محباً للحرب أكثر من أبيه،يضاف إلى ذلك أن قام «إسماعيل» الذى حاول عبثاً أن يستميل «قانصوه» لمؤازرته، يعضد «أحمد»الذى أدعى العرش بعد أن ائتمر بسليم أخيه .وزيادة على ذلك خاف «سليم» رعاياه الشيعيين الذين كانوايميلون إلى متعصبى الصوفيين، وعدَّهم خطراً على العرش فقبض عليهم وقتلهم.وقد رأى إسماعيل أن فى قتل شيعته معرة له فأخذ ينتقم لهم، وصار لامناص من الحرب، فخرج اليه سليم ونازله فى معركة «قرب تبريز»، وقد أبدى الشيعيون المتعصبون بأسا شديداً وشاركتهم نساؤهم فى الحرب، ولكن لم يجدهم ذلك شيئاً امام فرسان الأتراك ومدافعهم، وشدة بطشهم، فهزم رئيسهم إسماعيل هزيمة مخزيةوهرب. أما سليم فقد أعوزته الميرة فقفل راجعاً نحو الغرب وأشتى فى «أماسية». وفى الربيع عاد إلى الميدان وهاجم صاحب «ذى الغادر» الذى وقف على الحياد لأنه تابع لمصر، .فقتله وأرسل رأسه مع أخبار انتصاره إلى قانصوه . ثم انصرف «سليم» عن الشاه الذى كان قد عاد أدراجه إلى « تبريز» وحاول عبثاً أن يعقد الصلح، واكتسح «ديار بكر» و«الجزيرة» وأخذ « الرها» و«نصيبين» و«الموصل» وغيرها من المدن .

ولما كان سليم الآن بمأمن من «إسماعيل شاه» فكر فى الإقدام على مشروع عظيم هو فتح مصر، ورأى وجوب البدء بغزو سورية.وبما أنه لم يكن هناك مايشغله من جهة الشمال، رأى أنه من المستطاع أن يتقدم آمناً، ولذلك جهز لهذا الغرض جيشاً عظيماً منظماً فى ربيع عام ١٥١٦م. وأراد أن يخدع مصر فتظاهر بأن ما يقوم به من الاستعداد إنما هو لاتمام القضاء على «إسماعيل » وكان الواجب على«قانصوه» أن يتيقظ للخطر من قبل، لأن أسباب توتر العلاقات بين تركياو مصر زادت كثيراً، ذلك لأن أخا آخر لسليم خرج عليه ثم التجأ إلى مصر فقبلته، ولأنه بعد وفاة أحمد أمدَّ السوريون أبنه الصغير ومعه حاشيته الخارجون بما يلزمهم، ولأن الأمراء التابعين لمصر كانو قدأخرُّوا ورود المدد للجيوش العثمانية فى حربهم مع الفرس، وفوق هذا قد تم الإتفاق سراً بين سلطان مصر وبين إسماعيل وإن لم يكن فى معاهدة علينة. لم ينتبه قانصوه بل أضاع على نفسه الفرصة، لأنه لو ساعد الأمير الصوفى بسيفه من

أول الأمر لكان خيراً له ولجاءت النتيجة على عكس ما وقع بعد، ولكنه من غير شك لم يكن يرد بذلك الاتفاق الذى عقده مع إسماعيل أن يشجع المذهب الذى يكرهه كل العالم الإسلامى .وقد كان قانصوه قد أسَنَّ واعتمد على الأحزاب المحيطة به فلم يكن بأى حال قادراً على الحرب.

وأخيراً انتبه قانصوه إلى الخطر الذى يتهدده، فقضى شتاء عام ١٥١٥م وربيع عام ١٥١٦م فى اعداد جيش قصد أن يسير به إلى أطراف آسيا الصغرى الثائرة، وبذا أصبح متأهباً لكل الطوارئ .ولما كان على وشك الخروج بجيشه جاءه وفد من لدُنْ «سليم» يعده بشكل ودى، أنهُ يسمح له أن يعين حاكماً مصرياً لولاية «ذى الغادر»، وأن يستأنف فتح الحدود كما كانت لمرور التجارة والمماليك .

وقد خرج «قانصوه» من القاهرة بجيشه الكبير المجهز بجميع المعدات عداً المدافع فى حمارَّة الصيف - بعد أن ترك «طومار باى» حاكماً على المدينة ـ فى أبهة، تتقدمه الموسيقى والأغانى والأفراح، وتبعه خمسة عشر أميراً لألف، عدا كثير من الأمراء الذين هم أقل مقاماً من هؤلاء، وخمسة من مماليكه مع عامة الجيش وكان ينضم إلى هذا كله أثناء المسير فرق كثيرة من البدو والسوريين. وعلى هذا لم يكن الجيش فى حاجة إلى المزيد من الجند [1]، وكذلك خرج فى موكبه وزراء الدولة والخليفة والمشايخ ورجال الحاشية ومعهم المؤذنون والأطباء والموسيقارون.

وقد ضم إليه فى الطريق ابن «أحمد» العثمانى المطالب بالعرش المتوفى واحتفل به، على أمل أن يستميل المحبين له من الجيوش العثمانية وتقدم على مهل ودخل دمشق فى أبهة، وقد فرشت فى طريقه البسط فى حين أن التجار الأوروبيين نثروا الذهب على المحتشدين حوله. وبعد أن أقام أياماً تقدم نحو حلب متباطئاً، واستقبل فى «حمص» و«حماه» بمظاهر السرور. وجاءه فى تلك الأثناء رسول اخر من معسكر العثمانيين، وقدم له، على سبيل التغرير به، هبات غالية له وللخليفة أيضاً ولكبير الوزراء . ثم عرض أن «سليماً» يطلب شيئاً من السكر المصرى والحلوى. ثم أشار من طرف خفى إلى أن الذى ألجأ «سليما» إلى الاستعداد للحرب ثانية والنزول إلى ميدان

(١) وتقدر قوة الجيش المصرى العادى بنحو ٢٦ أميراً لألف عدا مماليك أمراء المائة وأمراء العشرة.ويقال أن قانصوه أشترى ثلاثة عشر ألفاً من المماليك ، ترك منهم فى القاهرة الفين لحماية القلعة.

القتال هو صدور فتاوى شرعية ضد «إسماعيل» المرتد، فأرسل قانصوه وزيره «مغله بك» فى وفد بهدايا فى مقابل تلك، ولكن فى اللحظة التى وصل فيها إلى المعسكر العثمانى كان«سليم» قدخلع رداء السلم وأعلن غرضه الحقيقى، ولما أراد أن يظهر احتقاره للمصريين عامل الوفد معاملة مشينة، ورد الوزير مقصوص الشعر، محلوق اللحية، راكباً حيواناً أعرج بشعاً، والباقين سائرين على الأقدام.

وقابله فى «حلب» «خير بك» الحاكم مقابلة فخمة جداً لأنه أراد أن يخفى خيانته وهى انضمامه سراً إلى الباب العالى، ومع أن السلطان وصله نبأ هذا من حاكم «دمشق»لم يصدقه. أما الأهلون فقد غضبوا كثيراً من المماليك لما أتوه فى مدينتهم من المظالم .عاد «مغلة بك» فى حالة مشعثة وأخبر السلطان بموقف «سليم» العدائى، وباقتراب الجيوش التركية سريعاً، فزال عندئذ كل شك فى موقف العثمانيين. واستحلف قانصوه الأمراء وكبار القضاة والمماليك السلطانية على الطاعة من جديد، ووزع عليهم الهد ايا أيضاً فأستاء جد الاستياء المماليك الآخرون الذين لم يعطوا شيئاً ثم حذر السلطان ثانية من خروج «خير بك» قائلاً له إن هذا العمل فى هذا الوقت خطر جداً، فلم ينفذ عزمه[1]. تقدم عند ذلك الجيش وعسكر فى اليوم العشرين من شهر أغسطس فى سهل «مرج دابق» على مسيرة يوم شمالى «حلب» وانتظر قدوم العدو. فى ذلك السهل كان سيتقرر مصير الأمبراطورية المصرية. وقد قاتل المصريون قتال الأبطال، عدا المماليك السلطانية الذين أراد السلطان أن ينجيهم من هول ذلك اليوم بتأخيرهم عن الصفوف الأولى. وقد تحرج كثيراً فى وقت ما موقف الترك حتى إن «سليماً» فكر فى التقهقر، ولكن لتفوق العثمانيين فى العدد والمدافع نالوا النصر فى آخر الأمر، وقد عجل بهذا النصر تقهقر «خيربك» بجيشه فولى المصريون الأدبار نحو دمشق لأن أبواب «حلب» قد أوصدت فى وجوههم. أما الخليفة وبعض كبار الأمراء فقد انحازوا للعدو. وقدقتل «قانصوه» فى هذه المعركة وحمل رأسه إلى الفاتح .[2]

(١) مع أنه قتل بعض الأمراء الذين خدموا «سليماً» على كره منهم ثم فروا من جيشه عندما أمكنتهم الفرصة.وقد كان موقف «خيربك» خطراً جداً .

(٢) وتختلف الروايات فى هذا ؛ فقد أذاع «خيربك» خبر موته ليزيد فى فرار المصريين وقيل إن السلطان وجد حياً فى الميدان فقطع رأسه ودفن منعاً لوقوعه فى يد العدو. ورواية العثمانيين أن الذى قطع رأسه تركى فأراد سليم أن يقتله ولكنه عاد فعفا عنه .

وقد دخل «سليم إلى «حلب» ظافراً، فرحَّب به الناس باعتباره منقذاً لهم من مظالم المماليك وعسفهم .وقد أكرم مثوى ا لخليفة، ولكنه وبخ القضاة ـ الحنفية وحدهم هم الذين فروا ـ لعدم إمكانهم وقف فوضى المماليك .ثم أخذ معه «خيربك» وضباطاً مصريين آخرين وتقدم نحو القلعة التى قد هرب منها قائدها واللاجئون إليها، وهنا أراد أن يظهر احتقاره لرجال حاميتها فأرسل أمامه جندياً أعرج ومعه عصا ففتحت له الأبواب فى الحال.

وقد وجد فى القلعة نفائس كثيرة كان قد وضعها السلطان والأمراء خوفاً عليها، فأصبحت لاحارس لها، ثم سار سليم وسط أفراح واحتفال إلى المسجد الكبير فدعى له فيه فى الصلاة ثم سار مظفراً من حلب إلى دمشق حيث انتشرت أشد حالات الزعر بين الناس الذين لم يحاولوا عمل شئ لمقاومة العدو ولحماية المدينة أكثر من إرسال الماء فى السهل الذى حولها. وقد شل سيرأعمالهم تنازع الأمراء فيما بينهم،كما هو دأب أمراء المماليك، وقد فكر بعضهم فى تولية «جان بردى» عرش السلطنة، وفكر آخرون فى إجلاس «ابن قانصوه» .ولكن عند اقتراب العثمانيين ذهب فريق إليهم وفر فريق إلى مصر، ودخل «سليم» المدينة حوالى منتصف اكتوبر، وقد اغتبط به السكان من عظيمهم لحقيرهم اغتباطاً لايحيط به الوصف، وخضعوا بسرعة للفاتح العثمانى تخلصاً من عسف المماليك .

حكم قانصوه مايزيد قليلاً على خمس عشرة سنة، ولسنا نعرف الكثير عن حياته الخصوصية وإدارته الداخلية، لأننا عندما نصل إلى الأيام الأخيرة للسلطنة المصرية نقل لدينا التفاصيل بدرجة لايصح بموجبها .وما يقال فى غير مصلحته أقل جداً مما يقال عن أكثر السلاطين السالفين، وذلك رغم قسوته واغتصابه الأموال كما وضحنا . هذه كانت نظرة عامة عن أحوال المماليك وظهورهم على الساحة السياسيه ثم إلقاء الضوء على قانصوه الغورى وما دار من أحداث وحروب فى أثناء فترة حكمه .

وكتاب «مواهب اللطيف فى فضل المقام الشريف فى مناقب السلطان قانصوه الغورى» من المصادر الهامة التى تتحدث بشئ من الدقة والإمعان عن نظرة الدين والسنة للحكم والحكام مستندين على ما ورد فى كتاب الله من آيات وعلى السنة من

آحاديث قوية موثوقة من كتب الأسانيد الستة وقد قمت بتصوير هذا العمل من معهد المخطوطات العربية بالقاهرة تحت رمز تاريخ رقم ٢١٠٦ وتقع هذا المخطوطة فى ٥٢ورقة وتتميز بخطها الجميل والواضح وأحيانا يوجد بياض فى بعض السطور. فالكتاب يمثل الدراسات التاريخية الفقهية فى أصول الحكم وموقف الحاكم من المحكومين ثم حقوق المحكومين نحو الحاكم والعكس. ويعتبر هذا العمل أول مرة يظهرفى الوجود. وصاحب هذا العمل «شمس الدين محمد بن أحمد بن شرف الدين المدنى الشافعى» أغفلته المصادر والمراجع إلا أنه يبدو فقيهاً ومحدثاً ومفسراً واختلف فى سنة وفاته فقيل سنة ٩٠٥هـ وقيل سنة٩٠٦هـ وقيل أيضاً سنة ٩١٠هـ والله أعلم .

أرجو من الله عزوجل أن ينال هذا العمل رضاء الله والمسلمين ونسأل الله العون والمغفرة، ياأرحم الراحمين.

القاهرة ١٤١٨هـ /١٩٩٨م

مديحة الشرقاوى

obeikandl.com

obeikandl.com

[ق ٢ أ] بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد الله الذى أبْرَزَ فى الموجود ملكاً غمر بالفضل والجود ،وأنزل من بركات الرحمة (*) من لجأ إليه ظفر بالمقصود، وجعله مباركاً أطفى به الشرك والجحود، وأظهر به الحق، فصار فى غاية الصعود، أحمده فهوالحى الموجود، وأشهد أن لا إله إلا الله الرب المعبود، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله صاحب المقام المحمود والشفاعةالعظمى فى اليوم المشهود صلى الله وسلم عليه وعلى آله الذين أظهر الله بهم

[ق٢ ب] الحق بعد الخمود. وبعد فقد أطلعت على مافى هذه المملكة الشريفة من/ الأمن والأمان، والشفقة والإيمان والفضل والإحسان .فعلمت أن ذلك بولاية مالك هذه الدولة العادلة مولانا السلطان الملك الأشرف الذى قمع الجبابرة بسيفه المرهف، غوث الله المؤيد بالملائكة المقربين، المسلط على الكفرة والملحدين ، باسط بساط العدل والأمان الذى عمنا بالجود والإحسان، ظل الله فى الأرض، القائم بالسنة والفرض الذى فاق ملوك الزمان، ونطق بشكره كل لسان وجنان مولانا السلطان الملك الأشرف قانصوه الغورى خلد الله ملكه وسلطانه وفاض على البرية وإحسانه وفاض

[ق ٣ أ] على البرية وإحسابه قال/ الفضيل بن عياض (١) رحمه الله تعالى : لوكان دعائى مستجابا لم أدع لغير السلطان لأن الله تعالى يقول: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾(٢) يعنى لولا أن الله أقام السلطان في الأرض يدفع القوي عن الضعيف. وينصف المظلوم من الظالم لهلكت الناس وتواثب الخلق بعضهم على بعض فلاتنظم لهم حال، ولايستقرلهم قرار، وفسدت الأرض ومن عليها، فامتن الله

(*) بياض فى الأصل

(١) هوالفضيل بن عياض بن مسعود اليربوعى أبوعلى الزاهد أحد العباد، روى عن الأعمش ومنصور وجعفر الصادق وسليمان التيمى وحميد الطويل ويحيى الأنصارى وخلق .وعنه الشافعى والسفيانان وابن المبارك ويحيى القطان وبشرالحافى والسرى السقطى وخلق. قال ابن سعد: كان ثقة ،نبيلاً،فاضلاً عابداً، ورعاً. كثير . انظر : وفيات الأعيان ١/ ٤١٥،ميزان الأعتدال ٣/ ٣٦١،العبر ١/ ٢٩٨،طبقات ابن سعد ٥/ ٣٦٦،شذرات الذهب ١/ ٣١٦، خلاصة تذهيب الكمال ٢٦٤.تذكرة الحفاظ ١/ ٢٤٥، حلية الأولياء ٨/ ٨٤، طبقات الحفاظ ١٠٤.

(٢) سورة البقرة الآية ٢٥١.

Obeikandi.com

على الخلق بإقامة السلطان ، فيأمن الناس به فيكون فضله على الظالم كف يده، وعلى المظلوم إعانته وكف يد الظالم عنه/ فأعظم بشخص يعم بنفعه العباد والبلاد ويصلح [ق ٣ب] بصلاحه الدنيا والآخرة ،أن يكون شرفه عند الله عظيماً،كما كان قدره فى العفو جسيماً ، ومقامه عند الله مقاماً كريماً.

روى أن سفيان الثورى(١) دخل على المنصور (٢) فقال : يا أمير المؤمنين إنى لأعلم أصلح هذه الأمة .فقال فمن هو ؟ قال : أنتَ يا أمير المؤمنين؛ وأعلم أنه على قدر عموم النفع ، تشرف الأعمال ، وعلى قدر النعمة تكون المنة .ألا ترى أن الأنبياء عليهم السلام أعم خلق الله نفعاً، فهم أجل خلق الله قدراً ،لأنهم تعاطوا إصلاح الخلائق وإخراجهم من الظلمات/ إلى النوركذلك سلطان الله فى الأرض هو خلافة [ق ٤ا] النبوة فى إصلاح الخلائق ودعائهم إألى عبادة الله تعالى، وإقامة دينهم وتقويم أودهم، وليس فوق السلطان العادل إلا الأنبياء والمرسلين والملائكة المقربين والصحابة والتابعين رضوان الله عليهم أجمعين فالله يؤيد مولانا السلطان عز نصره ويخلد ملكه وسلطانه بمحمد و آله .

ولما رأيت عدل مولانا السلطان وشفقته خصوصاً على خير أن سيد ولد عدنان، أحببت أن أجمع ماتيسرلى من الأحاديث النبوية فى فضل السلطان العادل والمجاهد وغير ذلك، وأجعل ذلك فى خمسة أبواب:

---

(١) هو سفيان بن سعيد بن مسروق الثورى أبو عبد الله الكوفى أحد الأئمة الأعلام، روى عن أبيه وزياد بن علاقة وحبيب بن أبى ثابت وأيوب وجعفر الصادق وخلق .وعنه ابن المبارك ويحيى القطان وعلى بن الجعد .قال شعبة وغير واحد : سفيان أمير المؤمنين فى الحديث . وقال ابن المبارك : كتبت عن ألف ومائة شيخ ماكتبت عن أفضل من سفيان. وقال ابن مهدى : مارأيت أحفظ للحديث من الثورى، وقال شعبة : إن سفيان ساد الناس بالعلم والورع .ولد سنة ٩٧هـ ومات سنة ١٦١هـ
انظر وفيات الأعيان ١/ ٢١٠،النجوم الزاهرة ٢/ ٣٩، اللباب ١/ ١٩٨، الفهرست ٢٢٥، العبر ١/ ٢٣٥، طبقات المفسرين للداودى ١/ ١٨٦، طبقات القراء لابن الجرزى ١/ ٣٠٨، طبقات الفقهاء ٨٤، شذرات الذهب ١/ ٢٥٠،الرسالة المستطرفة ٤١، خلاصة تذهيب الكمال ١٢٣، تاريخ بغداد ٩/ ١٥١ ،تذكرة الحفاظ ١/ ٢٣ تهذيب التهذيب ٤/ ١١١، خلاصة الأولياء ٦/ ٣٥٦

(٢) انظر : الكامل فى التاريخ ٥/ ١٥٢، تاريخ الطبرى ٩/ ١٥٤، تاريخ اليعقوبى ٣/ ٨٦،العبر ٣/ ١٨٠، تاريخ الخميس ٢/ ٣٢٤، مروج الذهب ٢/ ١٦٥- ١٨٠. تاريخ بغداد ١٠/ ٤٦، فوات الوفيات ١/ ٢٣٢، المحبر ٣٣-٣٤

الباب الأول: فى فضل الإمام العادل

الباب الثانى: فى فضل الجهاد فى سبيل الله ومايتعلق به.

الباب الثالث: فى الشفقة على الخلق ورحمتهم.

الباب الرابع: فى فضل العلم وإكرام العلماء وتوقيرهم ،وهذه الخصال الشريفة قد اجتمعت فى مولانا السلطان فإنه ملك عادل ومن أعظم المجاهدين وشفقته عامة على المسلمين .واختم هذا الكتاب

الباب الخامس: فى بيان حروف اسم مولانا السلطان . نصره الله وما فى اسمه
[ق ١٥] من الأسرار العظيمة . فـإن لكل إنسان من اسمه نصيبا، وسميت هذا / الكتاب المبارك «مواهب اللطيف فى فضل مولانا المقام الشريف» . ونختم الكتاب بخاتمة نذكر فيها شيئاً من صفات الملك العادل ثم بعد ختمه وإنتهائه إن شاء الله تعالى أقدمه لمولانا السلطان نصره الله تعالى لينتفع به من طالعه ويعرف فضل مولانا السلطان على غيره وإن كنت كمهدى القطر إلى البحر والضياء إلى الفجر لكن لاغنى لحملة العلم الشريف من التصرف ببضايعهم أن يضعوها عند أهلها ومحلها خصوصا مولانا السلطان، لأنه عم الرعية بفضله وقد عمنى بنعمته، وقلدنى الأحكام بين
[٥ب] / رعيته فالفضل منه سابق ولاحق فالله يجزيه أفضل الجزاء إنه على كل شئ قدير وبالإجابة جدير. فأقول وبالله أستعين ،وهوحسبى ونعم المعين .